هل يمكن للصّدى أن يكون صوتاً أصيلاً؟

إنّه منتدى المرأة العربية والنّزاعات المسلحة. يا له من منتدى، لا بل يا له من مهرجان جندت له أكبر جوقة إعلامية، كيف لا، والمنتديات هن السّيّدات "الأوّل" في بلادهن. فمنذ حفل الافتتاح في بيال شعرت المرأة العادية أنّها غير معنية بالموضوع أو غير مرغوب بها، لأنّها لم تدعَ وبالتالي لم يسمح لها بالمشاركة وهو أمر طبيعي إذ أن المرأة العادية هي أكثر جديّة وأقلّ مهرجانية في التعاطي بأمورها الإنسوية. فالمهرجان يقوم عادة على علاقة شيء بشيء، يعني يقوم على "واو" الربط وليس على ما تربط هذه الواو، تماماً كما يحدث عندنا في العالم العربي عندما ننظم ندوات للفلسفة حيث تأتي عناوين هذه الندوات على الشّكل التالي: الفلسفة والتنمية، أو الفلسفة والبيئة، أو الفلسفة والشؤون الاجتماعية. دائماً الفلسفة وال... وقليلاً ما نقع على ندوة مخصّصة للفلسفة كفلسفة. وهكذا تقع تلك الندوات في فخ الواو وتنسى الأساس الذي هو الفلسفة. وتنتهي كما يقول المثل: تمخض الجبل... لماذا؟ لأن الفيلسوف الحقيقي في تلك الندوات هو إمّا مغيب وإمّا غير مسموع لأنّه حين يتكلّم يكون كمن يغرّد خارج سربه تماماً كالمرأة العادية في المنتدى الذي أقيم مؤخّراً في بيروت والتي لو سمح لها أن تتكلّم لكانت غرّدت خارج السّرب المجنّح، المحلق عالياً، لأنّها هي صاحبة القضية ولأنّ وجهها عارٍ وقدميها حافيتان.

تردّدت كثيراً في الكتابة حول المنتدى هذا لأنّني كنت أتوقّع ردوداً كثيرة من قبل المرأة، المرأة العادية التي تكلّمت المنتديات باسمها. انتظرت ولم أسمع ردّاً واحداً، والأمر لا يجوز السّكوت عنه. هذه الجملة الأخيرة كانت عنواناً لمقالة كتبتها منذ حوالي عشرين عاماً وكان الموضوع سرقةً قامت بها إحدى الأستاذات في الجامعة اللّبنانيّة، والسّرقة هنا هي سرقة نصوص. فتلك الأستاذة كانت قد سرقت أكثر من ثلاثين صفحة من كتاب لي ونثرتها مبعثرة في كتاب لها حيث فقدت كل معناها وترابطها المنطقي داخل النّص الأصلي. وباختصار لقد صادرت تلك الأستاذة المحترمة نصّي لتعيده مشوّهاً. يعني أنّها لم تكتفِ بالمصادرة بل شوّهت ما صادرت وذلك ليس عمداً بل لأنّها عاجزة عن أداء ما ليس لها أصلاً، ما لم ينبع من صلب فكرها ومعاناتها.

لماذا عاد هذا العنوان إلى ذهني مجدّداً؟ عاد وببساطة كليّة حين كنت أتابع على شاشة التلفزيون المنتدى الذي عقد مؤخّراً في بيروت والذي احتلّ شاشات التّلفزيون وكأنّه "الحدث". عاد ذلك العنوان حين استمعت إلى إحدى السّيدات العربيات (وهي طبعاً سيدة أولى) تدلي بمداخلتها وهي تقرأ نصّاً بدا من

الواضح أنّه ليس نصّها هي، لأنّها كانت تقرأ كمن لا يفهم ماذا يقول، مع العلم أن ما كانت تقول ينسجم تماماً مع ما تريد قوله هي. حين سمعتها أصررت على متابعة أعمال المنتدى ودائماً من على شاشات التلفزيون وليس مباشرة. ماذا وجدت؟

حقّاً كان المنتدى مهرجاناً إستعراضيّاً تمّ خلاله مصادرة القول الإنسوي من قبل سيّدات يتربعن على عروش الملك وسيّدات الرآسة بكل درجاتها من رئاسة أولى وثانية وثالثة و... أقول مصادرة وأنا مسؤولة عمّا أقول، لأنّه لا يكفي أن تكون فلانة زوجة فلان من الرؤساء أ، الملوك كي تصبح ناطقة باسم الإنسى. لا بل أكثر من ذلك فهي لا تستطيع أن تكون صوت الإنسى العربية تماماً لأنّها زوجة هذا الرّئيس أو ذاك، لأنّها بصفتها تلك لا يسعها إلاّ أن يكون صوتها تمثيلاً على صوت زوجها صاحب السّلطة السّياسيّة. يعني أن ما تقوله لا يختلف عن ولا يخالف قول زوجها صاحب السّلطة عليها وعلى بلاده وهو قول ذكوري في عالم عربي.

أن يكون صوت كل السّيّدة الأولى في العالم العربي (وفي كل العالم ربّما) تمثيلاً على صوت زوجها فهذا أمر لا دخل لنا فيه، لكن أن تعتبر أنّ صوتها هو صوت الإنسى فهذا ما نعترض عليه. فإذا كان زوجها في السّلطة لأنّ "الشعوب" أو "المجالس التّمثيليّة" قد اختارته، فهذا يخوّله أن ينطق باسم شعبه، أمّا هي فلتسمح لنا بأن نقول لها بأنّها لا تمثّلنا بل هي زوجة من "يمثلنا" ويمثلنا بقضايا دون أخرى كقضية الإنسى مثلاً، ونحترمها على هذا الأساس. فلتترك القول عن الإنسى وفي الإنسى لمن بحثت واشتغلت وعانت في ومن هذا الموضوع لأنّ صوتها يكون صوتاً أصيلاً يعبر عن ذاته وليس صدى لغيره.

ربّما اعترضت المنتديات وقلن إنّهن مقتنعات بما يقلن وأجيب: أهنئكم على براءتكن والبراءة صفة الطّفولة. أمّا إذا كنّ غير مقتنعات وهذا يضعهن في موقع لا ينسجم مع موقعهن الحالي فليجرؤن على الاعتذار والاعتراف بالخطأ وهي من شيم الإنسان النّاضج والواثق من ذاته.

وأخيراً لا بدّ من بعض الملاحظات حول هذا المنتدى وكل منتدى حول موضوع "المرأة". أبدأ بالتسمية؛ فطالما أنّ الإنسى تقبل بأن تسمّى امرأة فهذا دليل على قبولها بالدونية إذ أن مصطلح "امرأة" هو تأنيث مصطلح "امرؤ" كما أنّ مصطلح "امرأة" هو تأنيث مصطلح "المرء"، والمرء هو النكرة وقد سبق وبيّنت ذلك ففي إحدى دراساتي حول الموضوع. إذاً فطالما تقبل الإنسى أن تسمّى امرأة فهذا دليل على قبولها أن تكون نكرة. والتّسمية، كما هو معلوم، هي التّعريف، والشيء لا ينوجد إلاّ بتعريفه، والإنسى التي

هي امرأة ترضى بذلك، لا تستطيع أن ترتفع إلى مستوى المدافع عن حقوق الإنسى لأنّ "المرأة" لا حقوق لها، فقط الإنسى لها حقوق مساوية لحقوق الرّجُل.

أنتقل إلى القول: هنا أقول إنّ "المرأة" لا حاصر لها لأنّها من دون ماضٍ وهذا الحاضر الذي سيحوَّل إلى ماضٍ سيجعل "المرأة" من دون مستقبل. كيف؟ لا يتشكّل التّاريخ أو الحضارة بشكلٍ عام إلاّ من تراكم الآثار أي من تراكم القول في كل تجلياته من رسم ونحت وبناء وموسيقى و... والحاضر الذي نعيش الحضارة الذكورية ونقول القول الذكوري لأنّه القول السّائد. هنا يبرز دور الإنسى إذا أرادت أن يكون لها وجود فعلي وهو الوجود الذي سيحقّق لها كل مطالبها بالمساواة الحقوقيّة مع الرّجُل. إذا أرادت أن توجد فعليها أن تقول، لا أن تردّد كالصّدى، عليها أن تقول قولها الخاص المميّز المختلف ولهذا القول المختلف أسس يقوم عليها هي أسس حاولت إيجاد بعضها في دراسة نشرت سابقاً ولا مجال للدّخول فيها الآن.

عذراً صاحبات الجلالة والسّيادة والفخامة وال... الصّدى لا يمكنه أن يكون صوتاً أصيلاً.

إلهام منصور